الذاكرة .. سفر على سفر .. انتظار ..ستون عاما – رحلة الصحراء

القدس:٤-٦-٢٠٠٩ استضافت الندوة الأديب الفلسطيني سلمان ناطور حيث ناقشت ثلاثيته " الذاكرة .. سفر على سفر .. انتظار ..ستون عاما – رحلة الصحراء " الصادرة عن منشورات دار الشروق للنشر والتوزيع في نيسان ٢٠٠٩ ، وتقع في ٤٥٦ صفحة من الحجم المتوسط والكتاب الأول " ذاكرة " صدر عن مركز " بديل " في بيت لحم عام ٢٠٠٦ والكتاب الثاني " سفر على سفر " صدر عن مؤسسة تامر في رام الله عام ٢٠٠٨ ، وهاهي الكتب الثلاثة تصدر مجتمعة عن دار الشروق.

بدأ جميل السلحوت النقاش فقال:

سلمان ناطور : ولد في دالية الكرمل جنوبي مدينة حيفا عام ١٩٤٩. أنهى الثانوية في حيفا وواصل دراسته الجامعية في القدس ثم في حيفا. درس الفلسفة العامة وعمل في الصحافة منذ العام ١٩٦٨ وحتى ١٩٩٠ حيث حرر الملحق الثقافي لجريدة "الإتحاد" الحيفاوية ومجلة "الجديد" الثقافية، ومجلة "قضايا إسرائيلية" الصادرة في رام الله، وكتب في النقد الأدبي والفني المسرحي والسينمائي والتشكيلي يحاضر في مواضيع الثقافة الفلسطينية.

منسق شبكة التاريخ الشفهي الفلسطيني في مناطق ١٩٤٨ ومن مؤسسي مؤتمر حق العودة والسلام العادل، شارك في تأسيس وإدارة عدد من المؤسسات العربية: اتحاد الكتاب العرب، لجنة "الجديد" للسينما الفلسطينية في حيفا التي

أنتجت أول فيلمين فلسطينيين في الداخل، "يافا مدينة على الشاطيء" و "الناصرة ١٩٨٤" جمعية تطوير الموسيقى العربية، مركز اعلام للمجتمع الفلسطيني في إسرائيل، لجنة المبدعين الفلسطينيين والإسرائيليين ضد الإحتلال ومن أجل السلام العادل جمعية "عدالة"، مدير معهد اميل توما للدراسات الفلسطينية والإسرائيلية في حيفا (٢٠٠٢ – ٢٠٠٨) . شارك في العديد من المؤتمرات حول الثقافة العربية والفلسطينية، حق العودة والتاريخ الشفهي، الصراع في الشرق الأوسط وآفاق تطوره. كتب ورقة الثقافة الفلسطينية للتصور المستقبلي الصادر عن لجنة المتابعة العليا وصاغ المسودة الأولى لوثيقة حيفا والمسودة الأولى للمشروع الوطني لأدب الطفل الفلسطيني .

صدرت له عشرات المؤلفات الأدبية.

الانتاج الأدبي والفكري

وسلمان ناطور الذي عرفناه من خلال كتاباته أديبًا فلسطينيًا عربيًا ملتزمًا بقضايا شعبه وأمته من مواليد ١٩٤٩ في دالية الكرمل في حيفا، وثلاثيته هذه صدرت في الذكرى الستين لميلاده، وانتهى من كتابتها في الذكرى الستين لنكبة شعبه ووطنه، وأديبنا مولود بعد النكبة بعام في قريته دالية الكرمل، ونما وترعرع في وطنه المنكوب، فهو ابن النكبة ورضع من لبانها، وشبّ على عذابات أبناء شعبه سواء من شردوا منهم الى أرض اللجوء، أو من عضّوا بالنواجذ على تراب وطنهم، وأصبحوا بقدرة قادر أقلية في هذا الوطن ، يعانون من الاضطهاد القومي والاجتماعي والاقتصادي، فقدوا أرضهم وعوملوا في وطنهم كغرباء، وبعضهم شرد في هذا الوطن وأصبح لاجئا فيه، بعد أن فقد أرضه وبيته وقريته ومكان مولده وسكناه، وجميعهم يعانون معاناة تكاد تكون فريدة في العالم جميعه، ولا شبيه لها في التاريخ الحديث، وهذه المعاناة ارتسمت في ذاكرة أديبنا، لذا فإننا نجد صدارة نتاجه الأدبي الذي نحن بصدده تقول:

"ولدت بعد حرب ١٩٤٨
دخلت المدرسة في حرب حزيران
تزوجت في حرب اكتوبر
ولد الأول في حرب لبنان، ومات أبي في حرب الخليج .
حفيدتي سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة ." ص٥

وكأنني بالكاتب يقول بأنه جزء من نكبة شعبه المستمرة، وأن الحروب تطارده كما تطارد شعبه وأن حروب الشرق الأوسط في العقود الستة الماضية تستهدف الشعب الفلسطيني، بل إن نكبة الشعب الفلسطيني هي سبب الصراعات والحروب في المنطقة، وكأنني به يتساءل أيضا: أما آن لهذه الحروب أن تنتهي؟ فهل هذه الستون عاما كانت بمثابة رحلة في صحراء التيه؟.

وأديبنا في كتابه الأول " الذاكرة " من هذه الثلاثية يعتمد على الرواية الشفوية للشيخ المشقق الوجه، وفي تقديري أنها امتداد لكتابه "وما نسينا" الذي صدر قبل أكثر من ربع قرن، وذاكرة سلمان ناطور هي من ذاكرة شعبه، فرغم الحروب، ورغم النكبة والعذاب، فإن ذاكرة الشعب الفلسطيني لا يمكن أن تنسى وطنها وفردوسها المفقود، وإذا ما راهن البعض على أن الزمن كفيل بأن يمحو ذاكرة الفلسطينيين، فإنه واهم بذلك، فأديبنا لم يكن مولودا عندما حصلت نكبة الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨، لكنه مع ذلك ينبش الذاكرة الفلسطينية، ويتقصى ما جرى في النكبة من ويلات ومجازر ومصائب، ينبش ويتفحص أسماء شهداء سقطوا وهم يتشبثون ببيوتهم ومدنهم وقراهم وأرضهم، ويتقصى أسماء قرى دمرت تدميرا كاملا، وتم محوها عن الخريطة، أو استبدالها بأسماء جديدة غريبة أعجمية، بعد تشريد من نجا من القتل من مواطنيها.

وذاكرة سلمان ناطور مسكونة بالمكان، هذا المكان الذي تغيرت ملامحه إن لم تطمس نهائيًا، كما تغير ساكنوه، لذا فهو يجوب هذا المكان واصفاً موقعه

والطرق الموصله إليه، وحاراته ووهاده وجباله، ومن شردوا من أطفال وشباب وشيوخ ونساء قتلن أو اغتصبن، وكيف قتلوا؟ وكيف شردوا؟ ، وأيّ الطرق سلكوا، ومستذكرًا بطولات فريدة وعفوية، ومؤامرات حيكت، يستذكر كل ذلك بمرارة يكاد حبر ورقها ينزف دما.

يستذكر قرى دُمّرت ومُحيت بالكامل مثل: خربة إبو حرب، عين حوض، عين غزال، أمّ الزينات، البروة، ميعار، معلول، جبع، صفورية، اكزم، المجيدل، اقرث، كفر برعم، المزار، الطنطورة، كفر لام، الشيخ براق، سيريس، خربة أمّ الدرج، خبيزة، حدثا، مسحة، عولم، سيرين ،معذر ، سمخ، هوشة، الكساير، عيلوط، عيلبون، رميش، علما الشعب، الكفرين، الجلمة، صيدا، زيتا، عتيل، سلمة، الخيرية، العباسية، الساقية، بيت دجن، يازور، صرفند، سيدنا علي، اسدود، والطابية.

كما يستذكر مدناً وقرى لا تزال قائمة، ولا يزال مواطنوها أو بعض منهم فيها مثل: حيفا، الناصرة، أمّ الفحم، يافا، عارة، بئر السبع، والرملة التي قتل المئات من أبنائها بدم بارد بعد أن احتموا بالمسجد، لكن المدن "المختلطة" لم تبق كما كانت"حيفا لم تمسح من خريطة هذا الوطن، لكن معالمها تتغير وتتبدل، حيفا عتيقة وحيفا جديدة، واحدة نعرفها نحن، وواحدة لا يعرفها إلّا أولئك الذين تمرّ في ذاكرتهم أيام البوابة الشرقية، وسوق الشوام، وبندر التجار، والقشلي كما مرّت من السنوات الطويلة" ص٧١

وإذا كان أديبنا يؤرخ للذاكرة الفلسطينية، وللرواية الشفوية الفلسطينية، فإن اللاجئين أيضا لهم ذاكرتهم الحيّة، فأبو محمد اللاجئ في مخيم جنين، وابن خربة أبو حرب، عاد بعد حرب العام ١٩٦٧، ووقوع الضفة الغربية تحت الاحتلال، عاد الى بيت أحد أصدقائه من مواطني دالية الكرمل، عاد حاملا "كوشان" أرضه وهو يردد: "قلت آتي الى الأرض وأفلحها أنا حتى أموت فيها فمن يعلم: بتروح

حكومات وبتيجي حكومات بتموت ناس، وبتحيا ناس، وهالأرض بتظلها أرض بترابها وحجارها وصوانها، وأنا سأدفن نفسي في هذه الأرض كي أظلّ ثابتا لا أتغير .... مثلي مثل هالتراب " ص ١٥

وبينما كان الشيخ مشقق الوجه يصف حدود عين حوض جاء على لسان السارد " كانت الشمس تشرف على السقوط في بحر" عتليت " خلف القلعة المحصنة من أيام "قلب الأسد" والغزو الصليبي البائد، وإن كانوا بنوا هذه القلاع ليوهموا الناس أنهم باقون الى الأبد، فإن ما تبقى منها لا يقنع الناس إلّا بأن الغزاة بناة القلاع ذاهبون حتما الى حيث لا رجعة ". ص ٣٩

ولا يلبث الكاتب أن يعود في الصفحة ١٥٦ الى ذاتيته وذكرياته الخاصة مع أبناء جيله فيتساءل تحت عنوان "ولدنا في الخطيئة": لماذا ولدت بعد حرب ما زالت مستمرة الى ما لا نهاية، وفيها منتصر ومهزوم، ويريدونني أن أكون دائما أنا المهزوم؟ ويتساءل بمرارة: لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم، ويأكل أهله ساعة بعد ساعة " ص ١٥٦

ومع أنّ كاتبنا عاش وأبناء جيله من أبناء شعبه حياة معذبة إلّا أنّه يرفض القفز على براءة الطفولة فيقول: " ولكن لماذا لا نذكر طفولة بريئة بدائية كنا نصنع فيها فرحنا على بيادر القمح، ونمارس حريتنا في الحقول الممتدة الى ما لا نهاية؟ ...كان النبع وكان البئر وكان تراب رملي يلسع أقدامنا الحافية وكنا سعداء " ص ١٥٩ ويتساءل الكاتب سؤالا استنكاريًا: هل نحن جيل بلا ذاكرة ؟" ص١٥٩ ويجيب بأنه يعرف يوم وشهر وسنة ميلاده مع أنّه لا يذكرهما، أمّا ميلاده الثاني " فهو يوم سقطت عن سلم خشبي كان ارتفاعه ثلاثة أمتار، ولم أمت ولم تكسر جمجمتي ولا أضلاعي " ص١٦٠ أمّا ميلاده الثالث فكان نجاته من الغرق في بحر حيفا وهو في الرابعة عشرة من عمره، ومع هذا فإنه لا يحتفل بيوم ميلاده وله أسبابه، والتي تتمثل في نكبة شعبه في حرب "مستمرة الى ما لا نهاية وفيها

منتصر ومهزوم، ويريدونني أن أكون دائما أنا المهزوم .....في وطن يتآكل يوما بعد يوم، ويأكل أهله ساعة بعد ساعة " ص ١٦٢

وقد توقفت كثيرًا عند حكاية عبد الحسن الذي كان مطلوبًا للإنجليز، فجمعوا رجالات القرية في ساحة ليتعرفوا عليه، فاتفقوا أن لا يُعرّفوا عليه تحت كل الضغوط، إلى أن جاءت والدته العجوز تحمل له الطعام والماء، ولمّا سألها الضابط الانجليزي عن اسم ابنها قالت: إنّه عبد الحسن القبضاي، فتعرفوا عليه وقتلوه ،" قسم كبير من الناس صرخ في وجهها وقال: أنت السبب في قتل ابنك، أنت قتلتيه، وهي صارت تشهق وتصيح: هذا ابني حبيبي، جبت له أسقيه.. عطشت يمّا ... جُعت يمّا ؟ وأمضت ما تبقى من حياتها حاملة صرّة فيها ثياب عبد الحسن وقربة ماء وهي تلف من بلد الى بلد لا تنطق إلّا بجملة واحدة : يمّا يا حبيبي، مين قتل عبد الحسن"؟ ص ١٦٤ فهل جاء الكاتب بهذه الحكاية ليؤكد تساؤلاته في ص ١٥٦ لماذا ولدت في وطن يتآكل يوما بعد يوم، ويأكل أهله ساعة بعد ساعة " ؟ أم للتدليل على المظالم التي أوقعها المستعمرون البريطانيون على الشعب الفلسطيني، وكيف يتنم تبرئة الجلاد وإدانة الضحيّة؟

وتعود الذاكرة في الصفحة ١٦٩ بأديبنا عندما التقى في العام ١٩٨٠ بزيتونة فلسطين الشاعر الراحل عبد الكريم الكرمي "أبو سلمى" هذا الشاعر الذي ترك حيفا مرغما في النكبة، وبقى حتى آخر لحظة من حياته محتفظا بمفتاحي بيته ومكتبه، ويتذكر أبا محمد من بيت غزال الذي تشرد في نكبة العام ١٩٤٨ إلى مخيم جنين، وعاد بعد هزيمة ١٩٦٧ ليتفقد خزانة وضعها عند صديقه الذي يبدو أنّه جدّ الكاتب ، وفتح الخزانة التي بقيت مغلقة " سحب عقدًا من الفضة وورقة كبيرة، هذا العقد لأمّ محمد وهذا كوشان الأرض سآخذهما وأترك لكما الخزانة " ص ١٧٦ ومفتاح " أبي سلمى " حرر أديبنا من عقدة مفاتيح زنازين الاعتقال " ليس بيني وبين المفاتيح علاقة عشق، وقد جاء مفتاح أبي سلمى ليحررني من

حقد على المفاتيح، كان اشتد في نفسي في ليلة من ليالي ايلول عام ١٩٧٧ " ص ١٨٠ وفي تلك الليلة تعرض أديبنا إلى الإعتقال.

"سفر على سفر "

يمهد الكاتب لهذا الكتاب فيقول عنه بأنه " ليس سيرة وليس مسيرة، وليس رواية وليس أدب الرحلة والترحال " ص ١٨٧ اذا ما هو ؟؟ " هو المكان الفلسطيني بلا حدود، والزمان الفلسطيني لا بداية ولا نهاية ..... هو نفي مطلق وهو فكرة مجردة وهو لا شيء " ص ١٨٧

في هذا الكتاب يسيح الكاتب في روما وباريس ولندن، كما يسيح في أجزاء من وطنه، هذه السياحة ليست سياحة استجمام وراحة، بمقدار ما كانت سياحة مع الذاكرة التاريخية، في مدن جميلة أخرى خارج الوطن، أهلها يعيشون حياة أخرى، وثقافات أخرى، وتاريخا آخر، فتساعد الكاتب على نبش ذاكرته، يستذكر الشاعر العذابات التي يلاقيها الفلسطيني في تفتيشه عند مدخل مطار بن غوريون، وفي داخل المطار، أثناء الخروج وأثناء الدخول... يلتقي في باريس فدوى حبيب الشاعرة والفنانة التشكيلية، التي تعرض رسوماتها في باريس وهي مولودة في بيسان، عندما هجرت منها في النكبة كانت في السادسة عشرة من عمرها، تحن الى مسقط رأسها، تطرح ذكرياتها عن المكان، وتسأل الكاتب عمّا جدّ في هذا المكان.

وفي لندن يلتقي بفلسطيني مولود في نابلس، وترعرع في عمّان في كنف عائلة ثرية، وتعلم في لندن إدارة الأعمال والتجارة، ويدير هناك أعمال عائلته " ص ٢٣٠ وهناك يريه هذا الفلسطيني صورة لقريته دالية الكرمل،كان قد التقطها سائح انجليزي للقرية قبل سنوات طويلة.

ويتجول الكاتب في ربوع وطنه، ويستذكر حضارات سادت ثم بادت، لكنها آثارها باقية.

انتظار:

يفتتح أديبنا كتابه بقوله الى "أمّ سميح" على صفحة كاملة، فمن هي أمّ سميح هذه؟ وهل هذا الكتاب هدية لها من الكاتب أم ماذا؟ وهذا الكتاب عبارة عن مقالات فيها حكايات باستثناء احمد بن رابعة فهو حكاية طويلة جاءت على شكل روائي .

المقالة في هذا الكتاب والمعنونة " انتظار في ساحة باريس " آذار ١٩٨٠ وتتحدث عن العمال العرب في ثماني ساعات يومية تبدأ من الخامسة صباحا وحتى الواحدة ظهرا وهم يبحثون دون جدوى عن عمل، فالعامل العربي يستيقظ في الخامسة ليسعى باحثا عن رغيف الخبز المرّ في سوق العمل الاسود، أحيانا يجد عملا بأجرة أقلّ من أجرة نظرائه اليهود، وغالبية أيامه لا يجد، تطارده الشرطة، ولا يعطيه مكتب العمل عملا، المقاولون يختارون العمال " كما تختار زوجتك البندورة في سوق الخضار " ص ٢٩٠ ومن بين العمال العرب أطفال جار عليهم الزمن، وتركوا مقاعد الدراسة ليعيلوا أسرهم، ويعملون بأجرة تقل عن ربع أجرة البالغين: "يحرث على الولد طول النهار ... أحيانا يطردهم دون أن يدفع لهم الأجرة ... هؤلاء الأطفال يعملون في العتالة ، في الباطون ، في ورش العمار ... انظر الى هذا الطفل " رفع القشة " ويحمل شوال الإسمنت على ظهره " ص ٢٩٢

ومع ذلك فإن ضريبة الدخل تطارد العمال العرب، وتفرض عليهم غرامات تصل إلى عشرات أضعاف مداخيلهم، وأحيانا تعتقلهم وتستجوبهم .

الحكاية الثانية : " بيت من نايلون – كانون الأول ١٩٨٢"

وموضوع الحكاية حول العمال العرب في مزارع المستوطنات، وهم يعملون في ظروف مأساوية وبأجرة قليلة أحيانا ينامون في براكيات حظائر الحيوانات ، وبعضهم ينام في هياكل باصات قديمة، كل عشرة في باص بدون نوافذ، فيضطرون الى تغليف هذه الباصات بالنايلون لتقيهم من الأمطار التي تتسرب

اليهم ، وبعضهم أطفال في سنّ الدراسة، غاليتهم يعودون الى بيوتهم مرة كل أسبوعين.

الحكاية الثالثة : " حكاية شيخ فلسطيني – تموز ٢٠٠٠ "

وهذا الشيخ من قرية بيت جبرين ، لاجئ في غزة ، في تشرين ١٩٤٨ كان عمره تسعة عشر عاما، وعندما دخل الجنود بيتهم حاول حماية والدته وأخيه الرضيع، واختطف الجنود والده الذي لم يعد حتى الآن – وعندما حاول اللحاق بوالده " أوقفه الجندي بضربة على رأسه، سقط فاقدا الوعي " ص ٣١٠ وفقد بعدها القدرة على النطق، ورفض أن يتزوج معأنّه كان خاطبا، وبقي ينظر في وجوه المارة لعله يرى والده " ولا يزال ينتظر والده ، وينتظر العودة الى بيت جبرين"

الحكاية الرابعة : "يوم حزيراني على حاجز ملتهب صيف ٢٠٠٢"

وفيها يصف الكاتب بسخرية جالدة مروره عبر حاجز قلنديا بين القدس ورام الله، وكيف يعيق الجنود حركة السير، بل يوقفونها، ويطلقون الرصاص، ومع ذلك فالبلادة هي سيّدة الموقف، فهناك سائق يقرأ الصحيفة، وهناك ركاب سيارة يصغون الى أغنية ويطربون عليها، وهذه البلادة أقنعت الكاتب بأن يكون بليدا حتى يتحمل الموقف، :" أقنعت نفسي أنّ البلادة هي سلاح الضعفاء، ولأن رجولتي شرقية لا تجيز لي الاعتراف بالضعف، فقد أقنعت نفسي أنّ البلادة هي سلاح الأقوياء " ص ٣١٩ والجنود أيضا مصابون ببلادة الموقف .... الجنديان على التلة يواصلان العبث وتمضية الوقت هما أيضا مصابان ببلادة حاجز قلنديا، فلا يبدو عليهما التوتر ولا الانفعال ولا التأثر " وفي هذه الحكاية احتجاج واضح على وجود الحواجز ، وعلى قبول هذه الحواجز.

احمد بن رابعة :

وقد أخذت مساحة طويلة ما بين الصفحات ٣٢٥ و٤٤٠ وفيها خلط عجيب من الحكي والقص والروي، فصاحبنا يجول بنا ما بين القرية وحيفا، يعمل في البناء ويقع ضحية لنصّاب في شركة التأمين ، يثرثر مع الصبايا والعجائز في محطات الباصات... وينتظر الطلبة الذين لا يقفون لمن هم أكبر منهم سنا في الباص ، بل ولا يعيرونهم اهتماما.

يبحث عن عمل، ويتقدم بطلب عمل على الهاتف بناء على إعلان في الصحيفة فيقبلوه على اعتبار أنه يهودي اسمه " حايمو فيتش " وخدم في الجيش وعندما عرفوا أنه عربي رفضوه، مع أن العمل هو سفرجي في فندق على شاطئ طبريا "ودار على مكاتب العمل بحثًا عن عمل، وأصبح يكره ساعي البريد بعد أن كان يحبه وهو طفل، فهر الآن لا يأتيه إلّا برسائل رسمية من الضرائب المختلفة كضريبة الدخل وضريبة المسقفات " الأرنونا "واستقبل زميلا يهوديا له أيّام الجامعة، عمل في الاخراج السينمائي بعد أن كان جنديا في فرقة "جولاني" التي احتلت جنين"، عام ١٩٦٧ واتصل بأحمد بن رابعة يريد مساعدته في تصوير فيلم عن العرب، وأصرّ على تصوير امرأة قروية تخبز على الصاج فنهرتة، في حين رفض تصوير الفرن، وحاول تصوير عربي مع حمار ففشل،... وتعرض احمد ابن رابعة لمخالفة سير، وعندما ذهب الى المحكمة كي ينصفه القاضي حكم عليه بضعف الغرامة، واشتغل فرّاشاً في المجلس المحلي، وكان الرئيس وزملاؤه يسرقون، وحاول أن يتهم احمد بن رابعة بالسرقة.... وهكذا عاش حياة فقر في فقر، وما أن يخرج من مشكلة حتى يدخل في اخرى.

اللغة والأسلوب :

خلط الكاتب ثلاثيته بلغة عجيبة بين الفصحى والعامية، وعندما لجأ للعامية فإنه أكّد بذلك الرواية الشفوية – كما يرويها ضحاياها – للنكبة وللمأساة وللجحيم الذي

يعيشه الفلسطيني اللاجئ، أو المشرد في وطنه، والمقيم في مسقط رأسه، وقد كان موفقا في ذلك، ولو لجأ الى الفصحى في تقديري لأفسد المعنى المراد.
أمّا بالنسبة للأسلوب ، فواضح أنّنا أمام ملحمة فيها خلط من القصة والحكاية، والمقالة والخاطرة والرواية، والسرد التاريخي والجغرافي، والبعد الفلسفي والسياسي وأدب الرحلات وأدب الحنين ، ورثاء المدن والقرى، والبكاء على الأطلال.
وهذا الدمج فيه نبرة لاذعة، وأمل واضح، ومرارة قاسية وكلها مغلفة بسخرية سلمان ناطور الذي عرفناها في مختلف كتاباته، وهذه السخرية الفطرية في أسلوبه هي الأقرب الى ذهنية المتلقي سواء كان قارئا أو مستمعا، ووصلت سخريته التي تكاد تطغى على الكتاب برمّته الى درجة " شر البلية ما يضحك "أو على رأي الشاعر علي الخليلي"الضحك من رجوم الدمامة ."
يبقى أن نقول أن هذا العمل الابداعي يشكل إضافة نوعية للمكتبة الفلسطينية والعربية.
وبعده قال **ابراهيم جوهر:**

ناطور الوطن ينتظر عودة أصحابه

هذا كتاب النكبة، وصورة النكبة، ومسيرة النكبة. فيه تتجلى النكبة الفلسطينية بوضوح، وتتأصل كواقعة تاريخية دامية ومستفزة. فيه يشير الكاتب بإصبع دامية الى مصدر النكبة وبأصابع واهنة الى ضحاياها . وهي أصابع استمدت الوهن من شدة المؤامرة وتكالب الأعداء وخداع الأقارب والأباعد.
فيه يرسم الكاتب المبدع سلمان ناطور وطنا حقيقيا يلونه بالدم والدموع والزعتر والضحك والطبيعة. يجمع فيه التاريخ الشفوي المروي بلسان من عايشوه على جلودهم، ويغوص في الذاكرة الثقافية للشعب والذاكرة الإبداعية للكاتب نفسه

فيحلق في فضاء الخيال الأبداعي القصصي والشعري المعبأ بروح الحنين والقهر والحب والكره، هذه المتناقضات الثنائية يوضحها الكاتب بقدرة فنية عالية تأسر بأسلوبها القارىء، فتمتعه وتفيده وتحرضه .

لقد تجاورت القصة الفنية والقصة الصحفية الى جانب الحكاية والمقابلة، وتقاطعت الخاطرة مع القصيدة في فضاء مفتوح من التهويمات واللقاءات الحقيقية والمتخيلة ذات الأصل الواقعي مع شخصيات من لحم ودم، وشخصيات من بنات أفكار الكاتب يصدق فيه الرمز والإشارة الى شخصيات معروفة بعينها أو وقائع معروفة .

لقد نقل الكاتب سيرة وطن، سيرة المكان والزمان والناس والزعتر، سيرة فلسطين التي كانت والتي هي كائنة عليه الآن، وأشار الى المسقبل المنتظر في كتاب كامل حمل عنوان (انتظار) وقد حرص الكاتب سلمان ناطور على نقل الوطن فلسطين بجغرافيتها ومدنها وقراها وناسها وعاداتها ولهجتها، الوطن الذي كان والوطن الكائن، وهو يذوب بناسه ويتلاشى "بنعومة" ممنهجة ويتعبرن لينساه أهله ولا يتعرفون عليه .

لقد اقتادت الحفيدة جدّها المناضل القديم المنسي غير المعروف حتى من حفيدته فلا تعرف شيئا عن ماضيه واسهاماته ، وهي نفسها قد نسيت لغتها العربية والعادات العربية ، مما يعني ضياع الهوية الذاتية . كما أشار الكاتب الى نموذج الشاب اللامبالي المتفرنج شكلا ومسلكا ومضمونا ليحذر من خطورة التماهي مع الآخر الى حد الذوبان .

أمّا المدينة (حيفا نموذجا) فينقلها الكاتب على أنها مدينة غريبة عن نفسها وعن إنسانها، كما أن إنسانها فيها غريب ومغترب، فقد كان عباس الفران يوزع الخبز

والحكمة صباح كل يوم، أمّا الآن فصار الخبز (بيتا) بلا طعم ولا حكمة ... لقد صار الفلسطيني لاجئا في وطنه.

ينقل الكاتب بلوعة سيرة الغربة المكانية والزمانية وسيرة الأغتراب الإنساني في بلاد احتلها الغرباء ،وحين عاد بعض أهلها اليها صاروا غرباء، أو وجدوا أنفسهم غرباء فيها وعنها، غربة مكانية ونفسية وفكرية، غربة هوية وانتماء ومصير. الكاتب ينقل لنا الواقع القائم بلغة اللا منطق الكائن بحكم قوة الواقع وحدة تغريبه، لذلك فإنه يحتال على هذه القسوة الطاحنة بالسخرية، السخرية في اللغة وفي الموقف وهو يوظف ثقافته ليدعم آراءه.

من هنا نجده وقد عاد الى أسلوب ألف ليلة وليلة الحكائي، وأسلوب غسان كنفاني الروائي برموز لغته وشخصياته، ومن نجيب محفوظ فلسفة أحداثه وشخصياته وقوّة لغته، وعرّج على يحيى حقي وقنديل أمّ هاشم، وجارى متشائل إميل حبيبي في سخريته ولغته، ومحمود درويش في عمق طرحه وجمالية لغته وعرضه. لقد جمع بعض تعاليم الدين أو الإشارات الدينية، وأقوال الحكماء وحكمة البسطاء في ثوب سرديّ جميل وساحر، فيه الحركة والتشويق واللفظة المعبرة والصورة المؤثرة ذات الدلالة المعنوية والأثر النفسي .

لقد جمع أسلوب المقال الصحفي والقصة والقصيدة والخاطرة ولغة السينما والسيناريو والحوار، فنقل بؤس الشخصيات وفقرها وألمها، وأطلعنا على عالمها وأمنياتها من خلال عالمها الجواني النفسي ولغتها البسيطة الأليفة.

شهادات حيّة وتاريخ حي صاغه قلم الأديب سلمان ناطور محافظا على أصالته ونكهته وتاريخيته

في كتابه الأول (ذاكرة) ليتواصل مع مضمونه العام من خلال سيرته الذاتية التي قامت امتدادا للسيرة الجمعية العامة للمكان والزمان والشخصيات ... هكذا جاء

الكتاب الثاني (سفر على سفر) ليمتع ويجرح ويدهش ويفاجيء، ويقدم أسلوبا جديدا ذكيا في لغته ورؤاه ووصفه ،وعمق أفكاره وأصالة مفاصله.

ثم جاء الكتاب الثالث (انتظار) لينقل مشاهد وصورا وألوانا للمنتظرين، ويؤكد على انتظارهم ومأساتهم وخيبة أملهم وقدرتهم أحيانا على المنافسة والتأثير، وضياعهم أحيانا أخرى وذوبانهم في عالم جديد غريب متوحش، وإن كانت تضيء عتمته بعض الفلاشات البسيطة ضعيفة الأثر والتأثير.

الشيخ مشقق الوجه هو امتداد للشعب ذاته المتوحد مع الأرض المندمج بها، هو الأرض نفسها. أمّا الشيخ عباس جامع المفاتيح فانه الشعب المنتظر وهو أمّ الروبابيكا في المتشائل . والمفاتيح نفسها التي يجمعها عباس فهي مفاتيح حقيقية ومجازية ، اذ لكل شيء مفتاح ...
سلمان ناطور كتب هنا التاريخ بلغة القلب وحكاه بصدق من خبروه . وحين كتب سيرته الذاتية وجدناه يغوص في لغة الشعر، لأنها لغة القلب والحنين والحسرة والأنفعالات كلها ، فصاغ مزيجا أسلوبيا جميلا .
(سفر على سفر) عنوان الكتاب الثاني – كتاب السيرة الذاتية، إذ يبدأ الشعر يتدفق مع العنوان نفسه المحمّل بالدلالات والأيحاءات والصور، لتسري في مفاصل اللغة الوصفية، وتكتسي بالعاطفة والحنين والشوق والحب، ولتأخذ تجسيدها على جسم الصفحات من حيث التوزيع للجمل والألفاظ.

سلمان ناطور في كتاب النكبة هذا (ستون عاما – رحلة الصحراء) يكتب ويصرخ وينادي وينتقد ويعلّم ويعلم وينتظر ويحذّر. إنّه يبكي ويضحك، ويمتع ويفيد ويستفز وإنه ليجرح ويؤشر الى الجرح القديم الذي يجب أن لا ينسى.

وهو لا ينسى انتظاره مع المنتظرين، فلا يضيع في اليأس ولا تأخذه الحيرة. إنه يعرف ما يريد، ويريدنا أن نعرف نحن ما يريده هو وما نريده نحن .

هذا كتاب آسر في أسلوبه ومضمونه. فيه ما هو جديد ومفيد . أقترح تدريسه في مدارسنا كتاريخ، ولغة، وتعبير، وسخرية فنية، ومكوّنات الهوية المبثوثة في ثناياه، وللتدريب على البحث والتحليل والوقوف على معاني الوطن ومكوّناته ومفهومه

وقال **موسى أبو دويح**:

أمّا رحلة الصحراء فقد وفق الكاتب في اختيار العنوان أيما توفيق. فالارتحال في الصحراء فمحفوف بالمخاطر، وغالبا ما يلقى مرتحل الصحراء حتفه فيها: ضياعا أو عطشا أو جوعا أو افتراسا. وسماها العرب مفازة لعل داخلها يفوز بالنجاة، كما سموا لديغ الأفعى بالسليم عله يسلم من موت مؤكد.

جاء في لسان العرب:" وأصل المفازة مهلكة، فتفاءلوا بالسلامة والفوز. والمفازة أيضا: واحدة المفاوز، وسميت بذلك لأنها مهلكة من فوّزأي هلك وقيل سمّيت تفاؤلا من الفوز بالنجاة."

أمّا العيش في فلسطين وعلى الأخص منذ سنة ١٩٤٨ وإلى الآن، فأيّ مفازة أو صحراء أو بيداء أشد هلاكا وقتلا وأكثر سجنا واعتقالا وأمرّ طردا وتشريدا وأسوأ قهرا وعذابا مما جرى ويجري في فلسطين على أيدي يهود. ففلسطين من هذه الزاوية صحراء بلقع.

وذاكرة الكاتب –التي اتخذ الشيخ المشقق الوجه راوية لها– شاهدة على كل هذا، وفصلته تفصيلا دقيقا، حيث لم يترك مدينة ولا قرية ولا خربة ولا جبلا ولا واديا ولا سهلا ولا وعرا، ولا بئرا ولا عينا ولا مرجا ولا تلّا، ولا طفلا ولا شيخا ولا صبية ولا عجوزا، ولا حاملا ولا مرضعا ولا مختارا ولا ختيارا، إلّا وأثبته في ذاكرته، فهي سجل حافل ومرجع قيم ومصدر جيد لأحداث فلسطين

خلال هذه الفترة(١٩٤٨-٢٠٠٩) بل وما قبلها، منذ بداية الهجرة اليهودية المشؤومة إلى هذه الأرض الطيّبة المباركة. اسمعه يتحدث عن أسماء الأماكن في الرحلة في صفحة ١٢٦:" هنا كانت سكنة الوهّاب. نقطة. هل نبدأ سطر جديد، هل نفتح صفحة جديدة؟ سكنة زبانة، فانوس، حارة النصاره، حارة الجمال، حوش المصري، المارستان، الكافوري، الحنة، الزحاقية، حارة السوق، سكنة المحص، سجل يا عمي، إللي ساكنين خلف الحدود بيعرفوها شبر بشبر وبيت بيت، طمنهم إنّا احنا هون، ما نسينا حارات الوطن، وراح نسجله للعايش واللي راح ييجي من بعدنا."

حتى إن الكاتب لم يغفل أسماء الضباط الإنجليز الذين مكنوا يهود من تحقيق ما يريدون بأساليب ملتوية. فقد قال الكاتب قي صفحة ١٤١:" الضباط الكبار يفرغوا بواخر أسلحة لليهود، وعلشان يضحكوا علينا يبعثوا أكم جندي مع أكم قطعة سلاح يعطوها للزعما حتى يصدقوا إنها بريطانيا بتساعدهم. كله كان ضحك على الدقون."

وكذلك لم يغفل أسماء خواجات يهود الذين كان لهم دور بارز في تحقيق الحلم اليهودي بإقامة دولة ليهود في فلسطين.

ويكشف الكاتب في ذاكرته خيانة الدول العربية وتآمرها وتسليمها فلسطين ليهود بردا وسلاما، مع أنهم يظهرون لأهل فلسطين أنهم جاؤوا لانقاذ فلسطين، حتى إنهم سمّوا "جيش الانقاذ". استمع إلى الكاتب يقول في صفحة ٧٣-٧٤:"وصل القاوقجي ومعه أربعة ضباط بنجمتين أو ثلاث نجمات، وتطلع في الناظور وأمعن النظر وقال: تحرير البلد لا يكلفني سوى شهيدين ولا أكثر.. خلال ثلاثة أيام تصل المدافع والمصفحات ونحررها – والحديث عن البروة – ومنها نحرر المكر والجديدة وعكا. والله ما صدقنا هالحكي.. كنا نعرف قوة جيش الإنقاذ.. لا هم إنقاذ ولا هم جيش منظم.. هالحكي إللي بيحكوا اليوم عن

سبع جيوش عربية كله دعاية بدعاية، لا سبع جيوش ولا سبع فرق. صوروا الحرب كأنها طوشة عمومية أو بين عائلتين. كنا نعرف هالحقيقة المرة. اجتمعنا وقررنا نحرر بلدنا بأنفسنا. وخصوصا بعدما انتظرنا ٣ أيام وأربعة وخمسة وأسبوع.. وما وصلت مجنزرات ولا مصفحات بعدما يئسنا تجمعنا ورحنا طريق الوعر، وهجمنا على القرية بقيادة شاب من شعب اسمه أبو اسعاف، واجهنا مقاومة عنيفة لكن إرادتنا كانت قوية.. وتمكنا نحرر بلدنا.. سقط منا شهيد و٣ جرحى. كان يوم عرس في حياتنا. وكان درس تعلمناه.. هالأرض ما بحررها إلا أصحابها.. لا ملوك ولا خواجات.. ولا الشعارات الرنانة."

ويكشف الكاتب خيانة جيش الملك عبدالله بقوله صفحة ١٢٨: "في نفس الليلة جنود عبدالله بدأوا ينسحبوا. شفناهم خارجين من بين البيوت، جيش اسرائيل فتح لهم الطريق من جهة الشرق ليطلعوا على الضفة.. تركوا البلد وهم يضحكوا على الناس ويقولوا: النجدة جاي، النجدة جاي. الصبح مع طلوع الفجر دخل الجيش الاسرائيلي.. كنا منهكين من الجوع والعطش.. دخلوا يقوسوا في الشوارع ."

ويبين لنا الكاتب جرائم يهود فيقول في صفحة ١٢١: "شوي ولا جندي حمل رشاش ووقف على باب الجامع وصار يرش في الناس.. طيخ.. طاخ.. طيخ.. طاخ.. شفتها في عيني.. قتلوا ٦٥ واحد.. غير الناس اللي انجرحوا.. جثثهم غطت أرض الجامع.. تركوهم سبع أيام في الجامع.. حتى الناس تشوف وترتعب."

وتظهر دعوة الكاتب إلى التمسك بالأرض والوطن قوية صريحة مدوية في قوله في صفحة ٧٦: "لن نرحل من وطنا..

راح نبقى في وطنا لو منموت

واذا بقينا بوطنا مش راح نموت

كل واحد بيرحل ما بيرجع للبلد إلا سائح"..

ويقول في صفحة ٧٧: "استعدينا للرجوع لبلدنا قلنا: اذا كان هون موت وهناك موت.. لأ، نموت على ترابك يا بلدنا.. راح ييجي يوم وأولادنا.. وأولاد أولادنا يرجعوا للأرض ويعمروا بيوت البلد ويزرعوا، ويذكروا دم أجدادهم.. أحسن ما نموت في الغربة، على أرض مش إلنا، وعلى تراب ما عمره حملنا، وما عمرنا زرعناه ."

أمّا لغة ذاكرة سلمان ناطور فجاءت باللغة المحكية، لغة أهل فلسطين، ويشفع له أنه جعل راويها شيخا عجوزا طاعنا في السن ومثل هذا لا يناسبه إلا اللغة العامية، فلو جاءت لغة الذاكرة بالفصيحة لجاءت نشازا. وإن كان ذلك مقبولا ومفهوما عند أهل فلسطين، إلا أنه ليس كذلك في بقية الأقطار العربية.

وقال **محمد خليل عليان**:

سلمان ناطور وأدب الذاكرة الفلسطينية

هو ليس رواية بالمفهوم التقليدي، هو ليس مجموعة قصصية، كما أنه بالتأكيد ليس مجموعة شعرية أو خواطر ونصوص أدبية، ليس تأريخا لأحداث جرت وما زالت تجري، ليس تكهنا لمستقبل لم يأت بعد، وربما لن يأتي أبدا، هو كلّ هذا وذاك، صنفه كما شئت، ضعه في الخانة التي تريد، إقرأه بالطريقة التي تريد، قيّمه من أيّة زاوية تشاء ، فلا بدّ أن تتوصل إلى نتيجة حتمية وهي أنك أمام عمل عظيم وغير مسبوق . "ستون عاما – رحلة الصحراء "

قرأت ما سنحت لي الفرصة أن أقرأ للكاتب سلمان ناطور، وحتى قبل أن يصلني هذا الكتاب الذي يجمع ثلاثية : "ذاكرة، سفر على سفر، انتظار" . كنت أدرك أن الكاتب مشدود للذاكرة الفلسطينية، وقد رهن قلمه لإحياء الذاكرة التي يصر أن تبقى حيّة، ولا تموت بل تنمو في داخلنا في كل يوم وتأبى النسيان .

الذاكرة ليست تأريخا لأحداث جرت، ولو كانت كذلك لما تميزت، لأن المكتبة الفلسطينية تعج بكتب التاريخ القديم والحديث، وما أكثر المؤرخين الفلسطينيين والعرب، الذين امتهنوا الكتابة عن القضية الفلسطيني. !

"الذاكرة" هي تسجيل، كما لو كان حيا، لأحداث حصلت في حقب مختلفة، بدءا من النكبة وحتى اليوم. وهذا التسجيل لم يكن على لسان الكاتب أو نقلا عن كتابات تاريخية، بل جاء على لسان رواة عايشوها أو عايشوا من عايشوها. وقد جاء هذا التسجيل الصادق والأمين على شكل حكايات سردت بلغة الرواة أنفسهم دون تدخل من الكاتب، مما أضفى عليها جمالا خاصا ومتميزا وغير مسبوق في الأدب التسجيلي الفلسطيني .

الذاكرة عند سلمان ناطور لا تتلاشى ولا تموت، بل تبقى حية تحضرنا في كلّ لحظات حياتنا، وإذا كان الشيخ متشقق الوجه يستعيدها بألم وحسرة، فهذا الألم هو ألم الحياة وليس الموت، فنحن لا نستعيد ذاكرتنا كي نموت بل كي نحيي حاضرنا ونرسم لمستقبل أجيالنا. فالذاكرة عند سلمان ناطور إذا ليست بكاءا على الأطلال ولطما على الوجوه، ونواح نساء بل هي محطة لا بدّ منها للانطلاق نحو المستقبل الذي لا بدّ آت.

وفي " الذاكرة" كما في "سفر على سفر" ومثل "الانتظار" أيضا لا يوجد شخصية محورية أو ما يقال عند بعض النقاد "بطل روائي" ، فالشخصية المركزية إن جاز لنا التعبير، هو الفلسطيني المعذب، المقهور، المشرد في عام التشريد وما بعد عام التشريد، إنه العامل الفقير الكادح، الفلاح الذي سلبت أرضه وهدم بيته، اللاجئ الذي جال العالم بحثا عن مأوى ولم يجد بديلا عن الوطن السليب، إنه الفلسطيني " الذي ولد بعد حرب ١٩٤٨،ودخل المدرسة في حرب حزيران، وتزوج في حرب أكتوبر، وأنجب الولد الأول في حرب لبنان، ومات أبوه في حرب الخليج،وحفيدته سلمى ولدت في الحرب التي ما زالت مشتعلة ".

وهذا الفلسطيني قطعًا ليس سلمان ناطور وإن بدا لكم ذلك، فالكاتب لا يكتب السيرة الذاتية ولا يبكي ماضيه هو نفسه، بل يحيي ذاكرة شعب كامل تشرد في بقاع الدنيا وما زال ينتظر.

لا تحتاج إلى خبرة في النقد والتحليل الأدبي كي تكتشف عمق الانتماء الوطني عند هذا الكاتب القدير ، إن الهمّ الأول، إن لم يكن الوحيد، الذي يؤرق بال الكاتب هو الهمّ الوطني العام، وإذا كان قد تناول في بعض الأحيان قضايا أخرى فإنه يتناولها فقط من الجانب الوطني، ويبرز انعكاسها على القضية أو انعكاس القضية عليها، ولكن بعمق وإثارة وتميز. فقضية العامل هي قضية وطنية وإن كان لها أبعاد طبقية، وكذا المرأة والفلاح والسياسة والتعليم، وكلّ القضايا الملحة التي تستوجب الاهتمام في حاضرنا هذا.

سلمان ناطور لا يكتب الرواية أو القصة أو النص الأدبي بلغة الأدب الفصحى، بل يدمج على نحو مبدع اللغة الأدبية والصحفية والعامية، وهو لا يضلل القارئ بهذا الشأن ولا يقول إنه يكتب الرواية أو الأدب في هذا العمل، إنه يسجل أحداثا كان لها أثر حاسم على حياتنا، وإذا كانت الرسالة من وراء هذه الحكايات قد وصلتنا، فأيّ أهمية تبقى لموضوع اللغة؟ . أنا هنا لا أقلل من شأن اللغة ولكنني هنا، وفقط هنا ، أعلي من شأن الرسالة التي تسمو على كلّ شيء .

ولم تكن اللغة خليطًا من الأدب والصحافة والعامية وحسب، بل كانت ساخرة أيضا في الأحداث التي تستوجب السخرية، سخرية من القدر، سخرية من منطق الأحداث ، سخرية من الألم، من الموت، من الفقر، من الجوع، من العري، من الحرب، من التشرد، من السفر، من فلسفة الانتظار، من الماضي ، من الحاضر، من المستقبل، من اللا يقين، من الغربة، من الاغتراب، وأخيرا سخرية من السخرية واللا مبالاة ، ومن أجل الحياة مع الذاكرة التي بفقدانها يغيب ماضينا

ويتشوه حاضرنا ونفقد مستقبلنا. الكاتب يسخر إذن من العالم ويقول ذاكرة هذا الشعب ستبقى حيّة، ومسيرته لا بد أن تنتهي وانتظاره حتما لن يطول.

أما **سمير الجندي** فقد قال:

-انتظار .تناولت في دراستي الفنية هذه، الجزء الأول وهو ذاكرة .

تحدث الكاتب في هذا الجزء من الرواية، عن مسيرة شعب فلسطين، فقد شُرد ،واضطهد وعُذب، وفقد أملاكه، وسلامه، وراحته، فقد صادرتها آلة القمع الإنجليزية، وبعدها آلة الدمار الصهيونية، بأسلوب ساخر عبَّر به الكاتب عن ذاته المعذبة، متكئاً على شخصية تمثل النكبة بكل حذافيرها، هي شخصية "الشيخ مشقق الوجه" بطريقة الحكاية الشعبية، وباللهجة العامية التي جاءت هنا مناسبة لسرد الحكاية، فكان الكاتب مبدعاً بصورة لافتة، بحيث جعلنا نغوص في أعماق الحدث المروي شفاهية، فصور لنا النكبة وجسدها أمامنا، فأبكانا وأغضبنا واستفز مشاعرنا لدرجة القهر، عندما شاهدنا كل تلك القرى والبلدات التي مُسحت عن وجه الأرض، فهي مرسومة على ملامح الشيخ المشقق الوجه، في خطوط وتجاعيد وجهه، يقول الكاتب في الصفحة ١١ " فالخط الأول الذي يمتد من اعلى حنكه وحتى طرف حاجبيه يكون عام الثورة..والخط الثاني الذي تقوس على أسفل جبهته يكون عام القحط، والخط الثالث المتعرج فوق الخط الثاني تبلور عام التشردn " ..ويشير الكاتب إلى حالة الشتات التي خلفتها هجمات المستوطنين وعصاباتهم، فقد تفرقت السبل بين الأهل والأصدقاء، والأماكن أصبحت غير متاحة، " أنا أصبح عمري أكثر من ثمانين سنة.. قبل أن أموت سأقابل أصدقائي.. وجئت لأودعكم الوداع الأخير.." صـــ ١٥. كما أنه مرّ على دور المخاتير في نكبة فلسطين، وبأن المستعمر مهما كان فقد استغل بعض النفوس المريضة في الألتفاف على قضية شعبهم وفي التعامل مع المحتل الغاصب، " كان في القرية ثلاثة مخاتير، الأول عينه أهل القرية، والثاني عينه

الانجليز، والثالث عين نفسه بنفسه" صـــ١٩ ، المختار الأول يحبّ أهل القرية ويحبّوه، أمّا الثاني فهو مكروه لديهم، لأنه يخلق الفتنة مع القرى ببعضها البعض، والثالث لا أحد يعرف كيف صار مختارا، وكان الخواجه شلومو يزوره أكثر من ثلاث مرات في الأسبوع، فهو إذن عميل للخواجه وعصاباته التي تقتل وتستبيح الحرمات، وتمسح قرى وتبنى فوقها كبانيات. أمّا ما لفت انتباهي في هذه الرواية هو صورة الآخر عند كاتبنا، فقد عبّر عنه بأنه الأدون، أي السيد باللغة العبرية، فقد ذكر الكاتب بأن هذا اللقب قد استحدث في عام النكبة، " حين تحوّل السيد إلى عبد والعبد إلى أدون" صـــ٣٤، كما سماه "ابن الميتة" : " جيش الإنقاذ محاصر بلدنا ومش راح يسمح لأيّ "ابن ميتة" يفوت"صـــ٣٦. وهذا التعبير كان يستخدم عند عامة الناس، واعتبره في موقع آخر بأنه إنسان له ضمير، إذ يقول: " وقرّر الفنان المنذهل الحزين أن يخلي البيت، فانتقل إلى بيت آخر،" صـــ ٤١ ولكنه خاف أن يأتي عربي آخر يسأل عن بيته الذي خلق فيه، أصابه القلق، وقرر أن يترك البلاد." فقد كانت تداهمه الكوابيس في الليالي المعتمة"ص٤١ ، وادّعى بأنه صديق، وبأن صداقته كانت قبل عام ١٩٣٦، وكنا نتبادل احترام الجيرة، يقول الكاتب" لي صديق قديم... " ويضيف" كنا نحترم الجيرة"صـــ٥٣ ، " كان لنا جار من الكمبانية اسمه ابراهام غيفر، كان يشتغل في الحرس.."ص٦٢ ، ولكن هذا الصديق وهذا الجار يتحول إلى خائن، " ورحت أبحث عن شريكي، أبراهام شميدو، هالعكروت كان بايع الخان وبايع الشراكة"صـــ٦٧، كما وصفهم بالقتلة الذين يقتلون الناس ويهدمون بيوتهم ويمسحون قراهم عن وجه الأرض، فهو يحدثنا قائلاً: " الانجليز كانوا ينسفوا البيوت وما يقتلوا البني آدم.. اخوانا بالله ، بيقتلوا البني أدم وبيهدموا البيوت"صـــ٩٦، واستخدم السخرية بشكل واضح في وصف أحد ضباطهم بـــ "اللطافة والإنسانية" لا لشيء إلّا لأنه خيرهم بالطريقة التي يرغبون بها في ترك قراهم ومنازلهم، وبعد دقائق يقتلونهم في الحقول، فهم

سفاحون في حقيقة الأمر" أمروا الرجال أن يقفوا صفاً واحداً، كانوا سبعة شبان: يوسف أبو مهارج، عادل الحسين الدبور، حسين رجا فحماوي، حافظ عبد الله فحماوي، صبري كيوان فحماوين والشابان من الطيرة... كان واحد من بلدنا من دار بشير.. زلمه فش أثبت منه.. رجع إلى البلد يصيح: الاولاد مقتلين في خبيزة.. الاولاد مقتلين في خبيزة.." صـــ٤٩-٥٠ . ويذكر لنا الكاتب أسماء العديد من القرى التي تهدمت ومسحت عن وجه الأرض، لدرجة أنني فكرت كثيرا بعمل فهرس لكل تلك القرى والأماكن حتى تصبح مرجعاً مهما للباحثين والدارسين، كما أنه ذكر الكثير الكثير من الأعلام، فمن القرى" عين غزال والمزار وجبع، والطنطورة، وكفر لام والشيخ براق وعين حوض "صـــ٣٩ ، " الدربية، وغرب البلاطية، وقطعة الجامع، والذيل"صـــ٣٥، ويذكر الكاتب قرى أخرى وكثيرة تم مسحها عن وجه الأرض فيقول: " فالحدثة تقع جنوبي كمبانية يمة، وشرقي مسحة، وكانت لها جارات: عولم، سيرين، ومعذر، كلها مُسحت وظلت يمة"صـــ٥٢، والبيوت تحولت إلى متاحف ومعارض فنية " تحولت دار ياسين إلى مرسم لا يرسم إلا المشلحات" صـــ٤١ والمساجد حولت إلى مطاعم وبارات تعمل فيها الحسان " وفي بلد الفنانين أصبح الجامع مطعماً تقف فيه فتاة جميلة وتقدم إلى الفنانين وضيوفهم ما تيسر"صـــ٤٠، والقرى صارت تجمعات لعصابات الصهاينة. لم يغب عن ذهن الكاتب عملية التهويد الممنهجة، فقد غيروا أسماء الشوارع في المدن الرئيسة مثل حيفا ويافا، والآن القدس، فاستخدم أسماء عبرية مثل " ي.ل.بيرتس،هنفئيم،مندلي موخير سفاريم، أفراهام أفينو" صـــ٦٦ ، وأشار الكاتب للأسلوب المخادع الذي استخدمه ضباط الجيوش العربية في جمع السلاح من المقاومين، أو كيف كانوا يقنعوهم بالإنسحاب من مواقع كانت تحت سيطرتهم، وقد ذكرني ذلك بما ورد عن هذا الأمر في رواية " زمن الخيول البيضاء" للكاتب الفلسطيني إبراهيم نصر الله" فقد ورد في الصفحة ٧٥" " لم يكن

بإمكان أيّة قوة أن تنتزعهم من بيوتهم التي عادوا إليها يغنون ويزغردون.. ووسط تلك النشوة وبارقة الأمل.. وصل قائد أردني بثلاث نجم وآخر عراقي بنجمة ومعهم جنود... يتوقف الشيخ مشقق الوجه عندما يحكي هذه الحادثة.. ويقول: لحدّ اليوم مش فهمان كيف ردّينا على الضابط لما قال لنا اتركوا البلد.."صـــ٧٥.لقد أجاد الكاتب في وضعنا أمام الحدث بطريقة معبرة سهلة، صادقة فيها الحبكة مترابطة، أنا لا أستمتع عادة باللهجة العامية عند قراءة رواية، ولكنني هنا استمتعت حقيقة، خاصة وأن أسلوب الكاتب الساخر، في موضوع جدّيّ وهام، قد وفّر عنصر التشويق، والإثارة، أستطيع القول أنه أسلوب السهل الممتنع.

وقال **محمد موسى سويلم:**

ستون عاما رحلة الصحراء، ستون عاما من عمر النكبة ولكن حين بدأ يكتب عن ذاكرة الشيخ مشقق الوجه، كتب عن أحداث فاقت الستين عاما، فقد تمت الكتابة عن ثورة الـــ ١٩٣٦ ثم رحلة الصحراء فهل قصد بكلمة الصحراء البيئة أم ماذا ؟..... رحلة الصحراء رغم ان فلسطين لم تكن صحراء يوما.

لقد كتب في ثلاثيته عن ذاكرة، ونبش في الماضي، وعن جرائم الاحتلال وقتل الشباب أمام عيون الأهل، وعن عدم السماح للأهل بدفن موتاهم، وعن شتات الأهل والأبناء، والتفرق في الأصقاع و عن الماضي الجميل، والبساتين الغناء من كلّ نوع، وأشجار وأثمار من كل ما لذّ وطاب الى الخيم وافتراش الأرض، والمواد الغذائية ..... المقدمة من وكالة الغوث.

و قد صدق الشاعر حين قال-:

نبيت في أكواخ قد خلت من أناسها

فقام عليها البوم يشكو ويندب

ونشرب مما تشرب الخيل تارة
وتارة تعاف الخيل ما نحن نشرب
ومع هذا وذاك نُتهم بالإرهاب والتخريب، وعدم الرغبة في السلام، وصانعي أعمال الشغب، ونُظلم من العالم ومن أبناء جلدتنا.

ولدنا في الخطيئة لماذا هذا التشاؤم؟ فكل الأنبياء والرسل والصالحين ولدوا في ظروف أصعب وأشد قسوة من ظروفنا، هذا من جهة ومن جهة أخرى إننا أصحاب حق، وقد قدر لنا أن نكون من أهل الرباط ومن أشد المدافعين عن الحقوق في العالم بشكل عام والعرب بشكل خاص، فنحن لسنا جيلا بلا ذاكرة، وما الانتفاضة الأولى التي قام بها شعبناعام ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى إلّا دليل على عمق الذاكرة ودفاع عن الحق.

سفر على سفر ..... و أنا اقول ربما هي سفر على سفر أي كتاب على كتاب، فقد بدأ من روما الى باريس والفلسفة الوجودية، الموجود و اللا موجود، وعن التاريخ والواقع والمكان والخوف واللا خوف، فهل هكذا يعترف العام بوجودي جراء السكوت عن الحق، والتسليم بالواقع وعدم الخوض في أمور السياسة وقبول الآخرين والتنازل عن الإنسانية وكرامتها وعدم جرح المشاعر والأحاسيس؟ ..... نعم روما وباريس وكل عواصم الغرب الذي لا ترى سوى الحق للآخرين، وانما ما اقترفت أيديهم من شتات وضياع وقتل ..... الخ هو تبرير. .....

صدق القائل-:

قتل حيوان جريمة لا تغتفر وقتل وتشريد شعب فيها نظر

لقد أصبح شعار العربي الجيد هو العربي الميت، وقد يصبح الشعار العربي الجيد هو الميت، ولكن خارج هذه البلاد ،أيّ لا وجود للأموات أيضا . نعم لم تعد طريق الآلام هى نفس الطريق التي سار فيها وعليها عيسى بن مريم عليه وعلى أمّه السلام، وإنما فلسطين كلّها أصبحت طريق الآلام من راس الناقورة الى أمّ الرشراش، أصبح السير فيها آلاما تدمي الأقدام ..... والقلوب هذا إن سمح لك بالسير فيها ... وإن سرت تحتاج الى دليل . ولكن (إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب) صدق الله العظيم.

ص ٢٥٤ اقتبس من النص

تغيرت كثيرا معالم القدس ..وجهها اليوم ليس كوجهها بالأمس...وقلبها لم ولن يتغير ...الحياة التي لا تهدأ في أسواقها وأزقتها ..للقدس نبض لا يحرك من يسكنها أو يأتي اليها فقط ...للقدس نبض يحرك كلّ من يشعر معها بأيّة علاقة من بعيد أو قريب ... مدينة ترفض أن تكون رمزا ...إنها واقع وحالة غير عادية ...التاريخ لا يتوقف ...لا شيء خالد على هذه الأرض ...كل شى يتغير ثم يزول من جديد..كثيرون مرّوا من هنا ...كثيرون احتلوا وهدموا وبنوا وذهبوا وجاء غيرهم

ولا يبقى سوى قصص التاريخ.

صدقت يا أستاذ سلمان لايبقى سوى قصص التاريخ، وها هو التاريخ رغم التزوير ومحاولة إخفاء الحقائق، إلّا ان الشمس لا تغطى بغربال. ولكن ما أخشاه أن يطالب الرومان والفرس والإغريق، وورثة الاسكندر بحق لهم، ويقولون أرض الآباء والأجداد. إن دولة الظلم ساعة ودولة الحق الى قيام الساعة .

أنا بليد اذا أنا موجود ص ٣١٩ شكرا أيها المفكر الفلسطيني العزيز، نظرية ستدرس في الجامعات، إن شاء الله ضمن مناهج علم الاجتماع الفلسطيني.

ستون عاما رحلة الصحراء كان الكاتب بفكرة الثاقب دخل الى أعمق مراحل الشتات الفلسطيني... تحدث عن مرحلة مرّت ولكن أثرها باق للعيان... وشواهدها في كلّ حيّ وواد، وكأن الأمور تزداد تعقيدا وصعوبة.. ونحن ننظر الى الأمر منتظرين أن يحل الزمان عقدتنا، كأن هذا الشعب كتب له وعليه الشقاء والهم والتشرد لا لسبب، ولكن صراع القوة والظلم والخوف من المجهول . فتفرق الأخ والابن والأمّ والزوج..... الخ العيش والاعيش.

تحدث الكاتب عن العقل الفلسطيني والقدرة على إيجاد الحلول والالتفاف على كل المحن والمصائب والنكبات ،تحدث عن الذكريات الجميلة في المدن والريف والحضر والبدو، وكل أطياف الحياة الفلسطينية من هناء وصفاء ، تحدث عن ماض تليد وعيش رغيد في البيت والبيارة والحارة والقرية والمدينة. ضاع العمر ضاع كتب تورث للأجيال وينقش في الذاكرة كل سنين الضياع و الشتات والعيش على الأمل و المستقبل و الغد

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعدة